السماء ، معلقا بين فرعي الشجرة . تقول انه يبدو وكأنه نما هناك كما ينمو الثمر ، وانه يكاد يخاطب الناس . لقد سمعت هذه القصة في مكان آخر ، ذات يوم ، وذهبت الى هناك . لا ، ليس مرة اخرى يا حمدان ، ليس مرة أخرى ، ان العمـــر الواحد لا يتسع لاكذوبتين كبيرتين .

ولا بد ان حمدان ابتسم ، فأنا أحس ذلك بصورة غريبة اعتدتها منذ زمن لا ترقى له ذاكرتي ، اكان يعرف انني سأذهب ؟ اكان يعرف عمق تلك اللعبة الهائلة التي نسميها الامل المهيض الجناح ؟ سمعت خطواته تمضي بعيدا عني الى بوابة بيت النار ، ليخبز دفعة جديدة من الخبز ، ولكن مهما كان يحسب ، فانني أعرف ان الحقائق الصغيرة لم تكن في البدء الا الاحلام الكبيرة ، وان القصص تبدأ هكذا ، وهكذا تنتهي . لقد قذفتني أقدار تعمل من وراء ظهورنا الى هذا المكان ، وانـــا اتساءل بين الفينة والاخرى عما يستطيع الاعمى أن يفعل غير أن يبيع خبزا ؟ ان الرغيف وحده هو الشيء الوحيد الذي يمكن ان يرى بالاصابع ، تماما مثلما يرى بالعين . وحين يصل الامر الى الرغيف فان أحدا لا يستطيع أن يخطىء ، حتى الرجل الضرير الذي ولد ، لسبب ما ، دون بصر . فمنذ عشرين سنة وانا جالس على هذا الكرسي أبيع خبزا ، ولا أذكر قط انني أخطأت . ان اصابعي تتذوق الرغيف وتزنه وتتعرف الى عمره وثمن جودته ، وهي تفعل ذلك كله كالعين والميزان معا ، فمما لا ريب فيه ان حياتنا مركبة على صورة فريدة ، ولو لم يكن الامر كذلك لما وجدت في هذا الكون كله متسعا لي ، أنزل فيه مثلما تنـــزل النبتة في الحوض ، وأنمو هناك ، مع الارغفة الساخنة وأصوات الناس ، يوما بعد يوم .

ولكن أما آن لذلك كله أن يمضي الى غير رجعة ؟ أليس ثمة في هذا الكون كله ، كله كله ، رجل واحد ، ميت واحد ، شيء واحد ، يعيد لهاتين العينين ضوءا مرميا على الطريق ، وليس من حق واحد دون الآخر ؟ كان الصخب يملأني وأنا أسمع حمدان يقذف الارغفة الى بلاط الفرن فتصدر عنها أصوات صفعات مكتومة ، وعرفت ، كما تعرف الارض ان عشبة ما ستنمو هنا ، انني سأذهب .

وكنت في أعماقي أكره ذلك ، ولكنني كنت أحس نفسي مربوطا اليه بلا فكاك ، وربما لذلك بالذات اعتزمت ان أمضي الى هناك في الليل ، ففي نهاية الامر ليس ثمة فارق عندي ، وكذلك يتعين على الاولياء الا يناموا .

وانتظرت مضي الساعات وانا أحس التوقد يملأني . لقد اعتدت أن انـــام في الفرن ، وتركت الوقت يمضي حتى عم الصمت تماما ، فقمت .

— ٢ —

لم يكن هناك ما هو غير عادي ، ذلك اليوم . كان يوما من تلك الايام التي عشتها سنوات لا حصر لها ، ولكن الحقائق الكبيرة ، كما يبدو ، لا يحتاج مجيئها الى مناسبات . كنت أناول رجلا ما كيس الاعاشة ، وكنت أقول : « عيشة النكد هذه ، أود لو ... » وفجأة جاء ذلك الشيء الغامض ، وانقلب العالم رأسا على عقب ، وقلت لنفسي : « يا ولد ! انت منذ عشرين سنة تقول ذلك الف مرة في اليوم » وللتو ، شعرت بشيء من الخجل ، واقتحمني ذلك مثل شيء لا يرتد ..

كنت أرى شفاههم تتحرك ، ولكن الصوت كان يتكسر أمـــام جدار رهيب يسد اذني ، ولذلك فان أقوالهم لم تكن لتعنيني . اعتدت ذلك ؟ لا شك . فجسور الصوت التي تمتد بين الانسان والانسان كانت عندي مقوضة تماما ، ولكن الانسان يتعلم . وكما يعتاد الميت الموت فان الاطرش يتعود الصمم . أحيانا أقول : كما يعتاد الانسان العيش ، فان الاصم يعتاد الصمت .. ولكن المسألة الاكيدة هي ان الاشياء أكثر تعقيدا .